ازدهار العلوم والفنون

إبان الثورة الفرنسية

إذا ثار شعب من الشعوب ليدفع عنه ما حاق به من حيف، ويحطم ما رسف فيه من أغلال الرق، ويستعيد ما ضيعه عليه مضطهدوه من حق، فإن ثورته لا تقتصر على الأغراض التي شبت من أجل تحقيقها ولكنها تتعدى نطاق التحرر السياسي والاقتصادي إلى التحرر الفكري والروحي، فتنفك قيود آراء وعقائد ضيقة الأفق وتقوم مقامها عقائد وآراء لا تعرف حدوداً وقيوداً . ويتبدل الذوق الفني فيمج الفنون الجامدة التي عرفها أيام رقه، ويتوق إلى فنون تتسم بالطلاقة والحرية اللتين ينشدهما من وراء ثورته . ويتطلع العلم الذي كان يخدم أغراض السادة قبل الثورة إلى ميدان الابتداع الفسيح المطلق الذي لا يقوم فيه لأية مصلحة فردية أو حزبية وزن .

وكل من يستعرض حوادث الثورة الفرنسية، ويستجلي طبيعة الانقلاب الفكري الذي حدث في إبانها، لا تفوته الشواهد على صحة ما ذكرنا . على أن الذي يستدعي النظر ويستثير الدهشة من أمر أولئك الذين قاموا على رأس تلك الثورة انتهازهم فرصة يقظة الشعب الفكرية وتضرم مشاعره الثائرة ليعملوا على تشجيع نهضته الثقافية وتوجيهها أوفق توجيه على الرغم من كثرة شواغلهم، وخطورة موقفهم وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم . وقد ظلت الجهود التي بذلها أولئك الأفذاذ في تلك السبيل مغمورة لأن ثورتهم ابتليت بالمؤرخين المرتزقين الذين بذلوا قصارى جهدهم في سبيل انتقاص شأنها وطمس آثار نهضتها، ثم جاء نابليون في أثرها فزينت له أطماعه أن يدعي لنفسه فضل ما تم خلالها من جلائل الأعمال، وانبرى المؤرخون المغرضون يرددون هذه الدعوى الباطلة، ويغضون عن الناتج المغوار نحو تشييد المؤسسات الفنية التي سبق إنشاؤها في عهد الثورة، ويزعمون أن تقدم

أوربا في مستهل القرن التاسع عشر كان من نتائج عمله ، وكان على الأقل من وحي عبقريته .

وقد وصف بييه Billet أمين المتاحف الوطنيـة الفرنسية للماعد وحالة الفن في الحقبة قبل الثورة الفرنسية ، فقال : كان المجتمع الفرنسي الراقي ، وهو ممثل في المشرفين على الفنون الجميلة ، والعاملين على تسخيرها في سبيل منفعتهم ، يعد تلك الفنون الى ما قبيل نشوب الثورة شاهداً من شواهد سطوته ، أو وسيلة من وسائل رفاهته أو متعته ، ويعامل الفنانين معاملة خدمه دون أن يوليهم من ثقته ما كان يولي أولئك الخدم » .

ولم يكن يتاح لأي فنان في ذلك العهد أن يستر شأنه أو يذيع صيته إلاّ إذا التحق بالأكاديمية الملكية ، وكان شرط الالتحاق بها أن يتلقى الفنان دروساً على أحد المشهورين في عالم الفنّ وأن يفوز بتقدير أستاذه ، وهذا لا يكون إلاّ إذا خضع له وسار على هواه وفقد في تلك السبيل شخصيته . وكان مقضياً له أن يظل محصوراً في دائرة ذلك الاستاذ فلا يستقي المعرفة إلاّ من منهله ، ولا يستلهم إلاّ وحيه ، فضعفت لذلك ثقافة الفنانين ، واتسمت أعمالهم بطابع جامد ، وجرت على غرار واحد خلت من التجديد والابتكار .

وقد سارت العلوم قبل الثورة ، كما سارت الفنون ، في ركاب ذوي الجاه والثراء من الاشراف ، وفي ذلك يقول العلامة الفرنسي مارسيل بريدون : « بدأ في القرن الخامس عشر خوض المحيطات الشاسعة وكشف البلاد النائية ، واستتبعت تلك الرحلات — التي أقدم عليها المقدمون ليشحنوا خزائن الأثرياء أكداساً من المال فوق أكداس — توسعاً في دراسة علم الفلك ، وبذل جهود مضاعف لضبط أقيسته ، وقد أدى هذا وذاك الى صنع أول تلسكوب عرفته الانسانية . وعادت السفن من البلاد المجهولة محمّلة بأنواع غير معروفة من الحيوان والنبات جاء بها ناقلوها الى أوربا بقصد الربح ، أو بقصد استثارة العجب والاعجاب » .

ومما كتبه ذلك العالم الفرنسي أن صنع التلسكوب أدى بعد تبديل في أوضاعه الى صنع الميكروسكوب فانبسط بذلك للعلوم الطبيعية مجال جديد تقدمت فيه تقدماً عجباً في بحر أمد قصير .

واستتبع ازدهار علم الفلك تقدماً في العلوم الرياضية . وتمخض الاهتمام بأنواع الحيوان والنبات المجلوبة من البلاد المجهولة عن وضع أسس متينة لعلم التاريخ الطبيعي ، ورأى

الملك لويس الثالث عشر أن تنشىء بحكومته حديقة تحشد فيها مختلف أنواع الحيوان والنبات وتخلع عليها اسم « حديقة الملك » ولكن سراة القوم أبوا أن تصبح هذه المنشأة مهماً علمياً ، وما زالوا بها حتى أحالوها الى نجعة يلتمسون فيها اللهو والمتعة ، ولم يراع التاعون عليها حاجة العلم والدرس في تبويب محتوياتها وتنسيقها ، ولكنهم راعوا في ذلك إدخال البهجة والسرور على نفوس اللاهين المتعطلين من روادها .

على أن للآداب حكماً آخر مختلفاً من حكم غيرها من ألوان الثقافة ، فان بوادر ازدهارها تسبق الثورات ، وقد تكون أشد ما يعجل بإضرام النار ، ذلك لأنها اللسان المعبر عن غضب الشعوب المكظوم ، فهي أشبه بالترعد الذي يسبق القتال . ولا عجب اذا سار الأدباء في طليعة الثائرين على الظلم ، لأن الشاعر كما قيل وريث صفات الأجداد الأقدمين الذين عاشوا على الفطرة في عهود الحرية المطلقة ، ويرجع احتفاظه بتلك النزعة المتوثبة للحرية ، حتى في أظلم عهود الاضطهاد ، الى تغذية ملكته الشعرية بمداومة الترنم بالشعر الذي درج فيه الخلف على احتذاء السلف ، والى الاحتفاظ بسليقته الحرة الأولى ، فلم يخل ديوان شعر من باب الفخر ، ومن قصائد طافية تغنى فيها الشاعر بالحرية والكرامة والانسانية . واذا قلت الشاعر قلت أقصد أحد أولئك الوزانين الذين اتأتوا على الشعر واستعبدوا النفثات الثائض من موائد الأمراء والأثرياء بمدائحهم التافهة المخزية . أما كبار كتاب الادب فهم أشباه كبار الشعراء ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء إلا أن الآخرين عبروا عن خوالج نفوسهم الحرة شعراً ، واكتفى الأولون بالتعبير عنها نثراً .

ولسنا نزعم أننا استطعنا فيما قدمنا أن نرسم للحالة الثقافية الفرنسية السابقة على الثورة صورة واضحة المعالم ، فان مطولات البحوث قد تعجز عن هذه الغاية . ولكننا حاولنا أن نكون للقارىء بالتلميح فكرة عنها . وسنحاول مرة أخرى أن نكون فكرة على ذلك النحو عما حدث من انقلاب ثقافي إبان الثورة .

قلنا إن آيات الفن الجميل كانت حبيسة قبل عام ١٧٨٩ بين جدران القصور المنيفة والمتاحف الحكومية الموصدة الأبواب في وجوه أفراد الأمة فلما كانت الثورة تضطرم ، وتحطم القيود والأغلال ، وترد الحريات الى أصحابها حتى حل دور تحطيم الديموقراطي كنانات الفنون فأعيدت

إليها حريتها وتمكنت من التعبير في غير قيد عن خوالج الأمة المتحررة وتوطيد الألفة بين كل منهم تمهيداً لتقدمها في سبيل الكمال .

وقد أدرك أولئك الذين نادوا بحقوق الانسان وحقوق المواطن ضرورة تعميم الفنون وإشاعتها وتمكين الشعب من حق تذوقها والتأثر بها ، ومن حقها في نبذ التقليد والمحاكاة وفي الخروج من ربقتها الى الحياة والنور ، فشكل المجلس النيابي في ديسمبر من عام ١٧٩٠ لجنة ناط بها أمر المحافظة على الذخائر الفنية كافة ، وألغى جميع الامتيازات التي تمتع بها ذوو الحظوة في العهد البائد . ثم أصدر في أغسطس من عام ١٧٩١ قراراً أباح فيه لكل فنان فرنسي أو غير فرنسي حق عرض أعماله الفنية بدون قيد أو شرط في الأكاديمية القديمة التي تحولت الى معرض عام ، وازدادت تشجيع الفنانين على الانتاج وحث الجماهير على الاهتمام بالفنون والعمل على تنمية ذوقهم الفني وترقيته ، وتضاعف النشاط المبذول في هذه النواحي حينما أنشأ المؤتمر الثوري المتاحف والمعارض العامة المتعددة المتنوعة ، وأفسح المجال في المدارس ودور العلم لدراسة مختلف الفنون والعلوم . ولم يقتصر نشاطه على مدينة باريس ولكنه قرر في يناير من عام ١٧٩٤ تعميم المتاحف الفنية في مختلف أرجاء الدولة ، وفازت مدينة تولوز بانشاء أول متحف من تلك المتاحف في ميدانها العام ، ثم حظيت خمس عشرة مدينة بمثل ما حظيت به تولوز نذكر منها « نانسي » و « ستراسبورج » و « ليون » و « مارسيليا » و « بوردو » و « روان » و « مايلس » . وشجع المؤتمر في نفس الوقت رجال الفن على إنشاء النوادي والمحافل الفنية والأدبية ، وترتب على مسعاه في تلك السبيل إنشاء مجمع الفنون في يوليو ١٧٩٣ ثم تحول ذلك المجمع بعد اتساع نطاقه الى مؤسسة كبيرة أطلق عليها اسم « جمعية الفنون الجمهورية الشعبية » ثم أنشئ « نادي الفنون الثوري » وأعقب ذلك صدور مرسوم بانشاء « المعهد القومي » للفنون والآداب . وقامت بالاشراف على هذه المؤسسات الفنية والأدبية « لجنة تعليم الشعب » المشكلة من كبار الأدباء والفنانين ، فلم تدخر وسعاً في سبيل السير بها قدماً الى أسمى غاية . وفي ذلك يقول « بيه » :

« ألم يجاهر « ماثيو » بأن الثورة الفرنسية مدينة للفنون والعلوم والفلسفة ، وأن عليها أن تبذل قصارى جهدها في سبيل دعمها وتأييدها » ؟

« إن هذا الرأي الذي ينم عن فهم صحيح للدور الباهر الذي لعبته الثقافة العامة في تشييد صرح الحضارة، هو الذي يفسر دواعي الجهود اللاهبة التي بذلتها الثورة في سبيل الفنون. ولا بد لنا من أن نقرر أن التجديد الذي تم في ذلك الميدان كان بمثابة أساس بنت عليه الحكومات المتعاقبة صرح التقدم، وادعت الفضل في ذلك لنفسها دون غيرها ».

وقد توّج رجال الثورة جهودهم البادية الفكر ببذل الجوائز المغرية للفنانين في وقت كانت حاجتهم فيه الى المال لمحاربة أعدائهم قد بلغت شدتها. وفي ذلك يقول الأستاذ المذكور:

« وجد الفنانون دلائل أخرى على اهتمام الحكومة الثورية بأمرهم، فقد كوفئت أعمالهم الفنية الممتازة بسخاء، ثم نظمت مباراة كبرى ظهرت عام ١٧٩٤ وزع عليهم فيها مبلغ ضخم بلغ ٤٤٢٨٠٠ جنيه ».

* * *

ولم يختلف اهتمام زعماء الثورة بالعلوم عن اهتمامهم بالفنون فعملوا منذ فجر ثورتهم على إزالة كل عقبة تعترض سبيل التقدم العلمي. ولم يجدوا بداً من حل المنشآت العلمية التي قامت في ظل الحكم الاستبدادي، وخضعت لأنظمة وقواعد عطلت نشاطها وفوّتت عليها فرص النجاح في خدمة العلم. فقد تغلغل نظام الطبقات الى تلك المنشآت فلم يفز برآستها إلا ذوو الألقاب، ولم يتمتع فيها بحرية إبداء الرأي إلا أتباع أولئك الأشراف ممن أقاموا الدليل بعد الدليل على استغراقهم في عبوديتهم، وأما سائر الأعضاء من العلماء فلم يكن يباح لهم حتى النبس ببنت شفة، وقد أشار العلامة ريبنسون الى ذلك في قوله:

« لم تكن المعاهد العلمية المنشأة قبل الثورة لتسد الحاجات الجديدة، ثم إن تلك المعاهد كانت خاضعة لأنظمة عتيقة عاقت التقدم العلمي « عن المضي » في طريقه، فهي لم تكن أوفر حظاً من الهيئات السياسية التي كبلتها الأنظمة العتيقة ».

« أصابت حكومة الثورة إذ قررت حل المجمع العلمي الذي كانت رآسته ووكالته وقفاً على الأشراف، واستبدلت به « معهد فرنسا » الذي لا يزال قائماً الى اليوم ».

ووجد أعداء الثورة مجالاً للمغالاة فرموها بمحاربة العلم، ودعموا فريتهم بذكر ما تم

به رجال من حملة تلك المنشآت العلمية وتناصروا المعاهد الجديدة التي حلت محلها ، وقامت على أسس قويمة متينة فأطلقت العلم من عقاله ، ونهضت به نهضة لم يعرف لها مثيل من قبل. واذا كان لا بد من التنويه بتلك المعاهد التي أنشئت إبان الثورة ، فانا نكتفي بأن نذكر منها « أكاديمية العلوم » و « المكتبة الوطنية » و « مكتب لونتيتود » و « مدرسة النورمال العليا » وكليات العلوم الرياضية والطبية .

* * *

واذا كان المجال لا يتسع الالمام بجهود تلك المعاهد وما أصابت من توفيق في وضع الأسس التي قام عليها الجانب الأكبر من صرح التقدم العلمي الأوربي في القرن التاسع عشر فإنه يجدر بنا ألا نغفل الاشارة الى نشاط « المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي » ذلك المتحف الذي قلنا إنه كان يعرف قبل الثورة باسم « حديقة الملك » ، وكان اشراف الذين تولوا أمره لا ينصرف إلا تنسيقه وتهيئته لابهاج علية القوم من زائريه . فقد قال عنه برينسون:

« شرع المجلس النيابي في عام ١٧٩٣ قانوناً للمتحف الوطني ردّ له فيه حريته فأزال الفوارق بين أعضائه المختارين من كبار العلماء ، وخوّل لهم حق انتخاب رئيسهم ، ونوّع فيه الدراسة فأنشأ فروعه لعلوم الكيميا والنبات والتشريح ، ثم كثرت فروعه على توالي الزمن وتناولت علوم الحيوان والتشريح المقارن والجيولوجيا والمناجم ، وتحوّل المتحف الى جملة معاهد علمية جدية »

ولم يحجم الأستاذ كوليري الذي انتقد الثورة عن قوله : « اذا كانت الثورة قد خرّبت كل شيء فانها حافظت على كيان العلوم الطبيعية بل انها أدت لتلك العلوم ، كما هو ظاهر ، أجل الخدمات » .

وقد خصصنا هذا المتحف بالتحدث عنه لأنه لفت أذهان علماء أوربا الى أهمية علم التاريخ الطبيعي الذي كشف عن مجاهل شاسعة الرقعة في عالم الفكر ، وأسفر عن التطور الفكري الخطير الذي رجّ أوربا في القرن التاسع عشر .

على أن تأثير الثورة الفرنسية في الأدب كان أوسع مدى وأبعد غوراً من تأثيرها في أي فرع آخر من فروع الثقافة ، وهو لم ينحصر في حدود فرنسا ، ولم يقتصر على بث روح جديدة

في كبار الأدباء الفرنسيين أمثال شاتوبريان ومدام دي ستال ولامرتين وفيني وموسيه ، ولكنه تجاوز موطن الثورة الى البلاد المجاورة ، وسرعان ما تجاوب للدعوة الى الحرية رجع صدى في انجلترا وألمانيا ، فطلع على الانجليز بيرون وشيلي وكيتس وغيرهم من الشعراء المبدعين الذين صاغوا للحرية أجمل الأغاني وأرقصوا بها أوربا بأسرها . وطلع جيته على الألمان بشعر وقصص جديد في روحه ومعانيه ، وجاراه شيلر في هذا المضمار فنفث في أبناء وطنه الروح الثورية بعد طول الجمود . ثم أعقبهما هايني الثائر على جميع القيود ، ولم تلبث عدوى الآراء الحرة الجديدة أن تسربت الى روسيا فاعتنقها تولستوي ودوستويفسكي وتورجنيف وغيرهم من كتاب الروس الذين أذاعوها في بلادهم ونافحوا عنها خير منافحة بما لاقوا في تلك السبيل من عنت المتعنتين . وقد اضطررنا لضيق المقام الى حشد تلك الأسماء اللامعة دون ما إشارة الى أعمال أصحابها الفنية الجليلة التي تنفح بروح الثورة الفرنسية ، ولو أردنا أن نزيد القارئ شرحاً لطال المقال وضاق المجال .

* * *

وليس من المتوقع بعد البحث المتقدم إلا أن تعود بنا الذاكرة الى عام ١٩١٩ والى ما قبل عام ١٩١٩ ، وأن نستعرض حوادث ثورتنا الكبرى وما كانت عليه الحال قبل ثورتنا الكبرى وأن نقارن بين ما وقع في فرنسا في القرن الثامن عشر وما وقع في مصر في القرن العشرين . وأحسب أني مضطر الى معاودة الاعتذار بضيق المقام عن الاسترسال في الشرح وإيفاء كل جانب من هذا الموضوع حقه في التبيين . وإني أكتفي الآن بعرض رؤوس المسائل على أن يكون للتفصيل عودة .

كانت النهضة المصرية التي غرس محمد علي باشا بذورها تتعثر في سيرها ، ولكنها ظلت تتقدم رغم تعثرها حتى اغتصب الانجليز مصر وتحكموا في مصيرها ، فوضعوا التعليم موضعاً جردوه من كل لون من ألوان الثقافة ، وقصروه على قشور المعارف المدرسية ، وتبين أنهم لم يبتغوا من وراء المدارس التي أنشأوها إلا اعداد طلبتها لملء وظائف الدواوين ، وتدريب ذلك النشء على الخضوع والطاعة . ثم إنهم كتموا أنفاس الصناعات المصرية وهي في طورها الأول فقضوا على منابت العلوم والفنون والآداب . ولم تعرف مصر في عهد الظلم من

ألوان الغناء إلا تلك الموسيقى الغنائية الباهتة السائرة في ركاب الموسيقى التركية، ومن الأدب إلا تلك المختارات الأدبية السقيمة التي كان أساتذة ذلك العهد يرغمون تلاميذهم على حفظها عن ظهر قلب، ويدخلون في روعهم أنها من روائع الأدب العربي فيصدونهم بذلك عن الأدب ويزهدونهم فيه، ويقتلون فيهم كل موهبة جميلة.

* * *

على أن الشعر العربي لم ينعدم في ذلك الوقت، رغم ما عاناه من كبت، فبعض شعرائه أخذوا بناصره، وأنطقوه بما كان يجيش في صدر الأمة من سخط على الأجانب، ومن ضيق بمظالمهم، ومن ألم لما آلت اليه حال بلادهم، فوجد فيه قارئوه متنفساً مما كانوا يكابدونه من عناء وعذاب. ولم يلبث ذلك الشعر أن صار رغم ضعفه وقصوره حافزاً هاماً من حوافز ثورة ١٩١٩.

اشتعلت تلك الثورة فنفثت في الصدور نوازع الى تحطيم أغلال الرق، وتنسم نسائم الحرية، فهل أفادت الفنون والعلوم والآداب من تلك النوازع؟ هل سرت تلك الروح الطليقة الى ميدان الثقافة العامة؟ وهل اهتم زعماء الثورة بأن يأخذوا في أثناء تلك الفرصة المتاحة بناصر النهضة الفكرية ويدفعوا بها الى الأمام؟ أحسب أن ثورتنا لم تحدث في ذلك الميدان الأثر المأمول. ولعل السبب في ذلك يرجع الى أنها لم تصل الى أهدافها، ولم تحقق أغراضها إبان اشتعالها، فشابت عوامل الشك وخيبة الأمل خوالج النزعة الى الحرية. وانهمك الزعماء في مجالدة خصمنا المشترك فشغلوا عن الاهتمام بمناصرة الفنون والعلوم.

* * *

على أن الحظ السيء الذي أدّى الى اختلاف في الرأي بين رجالات مصر في فجر الثورة حوّل فريقاً كبيراً من الأدباء من ميدان الأدب الى ميدان السياسة، فلم يتفرغوا لرسالتهم الأدبية ولم يؤدوها كاملة فخسرت الآداب العون الذي كان جديراً بأن يسمو بها الى الذروة.

وقد بذلت جهود موفقة في السنوات العشرين الأخيرة لانهاض العلوم والفنون، ولعلّ الظرف قد تهيأ ليشن شبابنا غزوات ناجحة في ميادين العلوم والفنون والآداب.

محمد منير الشوباشي